سيميائيات العنونة
[الرواية المغاربية أنموذجا]

عبد الحق بلعابد *

عتبة منهجية:

◆ العنوان من السيميائيات إلى الشعريات :

عرف العنوان في نهاية القرن الماضي، إهتماما كبيرا، على صعيد الإبداع أو التحليل، فقد طالعتنا أسماء متعدّدة محاولة الإجابة على هذا المنجم من الأسئلة، وعن هذه المتتالية(1) اليسميائية. وبالحفر في ذاكرة السيمائية للعنوان، نجد العناية به قد بدأت قديما إلا أنها لم يكتب لها الاستمرار لما عرفته المؤسسة النقدية من توجهات في التحليل والاشتغال على مرّ مراحلها التطورية.

فقد حاولت البلاغة العربية قديما كل بلاغات الحضارات الأخرى الإجابة عن هذه المتتالية، إلا أن إجاباتها قد قمدت حبيسة الدرس البلاغي التقليدي دون الدفع بها إلى الأمام من لدن الدارسين المعاصرين المهتمين بالدرس السيميائي والبلاغة الجديدة، وبين هذه الإسهامات البلاغية العربية التي نظرت إلى العنوان **كبنية نصية جمالية، ذات وظيفة إخبارية** تحركها طاقة إنجازية لهذا الملفوظ، ماجاء به " ابن أبي الإصبع المصري " في كتابه تحرير التحبير)، الذي أفرد له بابا، وجعله نوعا بديعيا مخترعا، لم يسبق إليه، حين عرفه بقوله:" **هو أن يأخذ المتكلم في غرض له من وصف، أوفخر، أومدح، أوهجاء، أوعتاب، أوغير ذلك، ثم يأتي لقصد تكميله بألفاظ تكون عنوانا لأخبار متقدمة، وقصص سالفة...**"(2).

---

* – باحث جزائري بجامعة الجزائر.

فالعنوان، إما أن يأتي كلمة، أو جملة، أو نصا، يحمل وظيفة تكميلية متضمنة لخبر، أو قصة ما، تشغلها طاقته الإخبارية، "**...لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله**"(3) كما يقول السيوطي.

لنجد العنوان الآن من أهم الحقول الدراسية، التي اهتم بها كل من (بارث، غريفل، دوشي، ميتيرن، هويك، جينيت...)، فهو موضوع للساني والسيميائي والشعري والمنظر الأدبي وعالم الاجتماع وعالم النفس والبلاغي من قبلهم(4).

فالعنوان يطرح إشكالات عديدة على مستوى الاشتغال وهذا لتعقيد طبيعته وصعوبة ضبط وظائفه، وهذا ما قل به مؤسس **العنوانيات(titrologie)**(5) " ليوهوك" وهو بصدد تحديده:" **إنه مجموعة العلامات اللسانية، من كلمات، وجمل، حتى نصوص، قد تظهر على رأس النص لتدل عليه وتعينه، وتشير لمحتواه الكلي، ولتجذب جمهوره المستهدف**"(6)، فهو علامة للكتاب، كونه من أهم عناصر المناص التي حددها "جينيت" في عتباته(7). ولإبراز هذه التحديدات والتعقيدات التي تطول العوان اخترنا عناوينا لروايات مغاربية قصد تحقيق إستراتيجيتنا القرائية، والعناوين هي لرواية واسيني الأعرج (كتاب الأمير)، رواية محمد برادة (لعبة النسيان)، رواية فرج لحوار (الجسد وليمة)، رواية إبراهيم الكوني(نزيف الحجر)، معتبرين مع "دوشي" أن هذه العناوين هي " **رسائل سننية في حالة تسويق تنتج عن لقاء ملفوظ روائي، بملفوظ إشهاري، تتقاطع فيه الأدبية بالاجتماعية، إنه لا يتكلم/يحكي العمل الأدبي في عبارات الخطاب الاجتماعي فقط، ولكن الخطاب الاجتماعي في عبارات روائية**"(8).

1 - حركية العنوان السيميائية :

1 -1 - العنوان كواقعة معجمية : لا يخرج العنوان في حقله المعجمي عن ثلاث معان دالة وهي القصد والإرادة (من مادة عنا)، والظهور والاعتراض(من مادة عنن)، كما يحمل معنى الوسم والأثر من المادتين(9).

وإذا أعملنا هذه المعاني المعجمية في العناوين المدروسة، فسنجد معنى القصد والإرادة يعدان من خصائص مرسل العنوان أي (المُعنون)، والظهور والاعتراض من مميزات المرسل إليه العنوان، أي (المعنون له)، غير أنه تبقى هذه المعاني المعجمية متداخلة أثناء التحليل. فالعناوين التي سمى بها الكتاب رواياتهم(لعبة النسيان، الجسد وليمة، كتاب الأمير، نزيف الحجر)، هي حاملة لمقصدياتهم تقترب أو تبتعد من مقصديات القارئ الذي يرد الكاتب إقناعه بها، فالعنوان قصد من الكاتب، وإرادة منه لتسمية روايته. أما الظهور والاعتراض فهما مقتضيات القارئ التي يحملها للرواية/الكتاب بسؤاله متى يظهر العنوان أو الرواية ككل وأين يظهر؟ فالإجابة على سؤال متى يظهر فنجدها في تاريخ صدور هذا العنوان أو هذه الرواية وإعادة طبعاتها، أما سؤال أين يظهر العنوان فنجد دائما في صفحة الغلاف أو العنوان. أما اعتراض القارئ على العنوان، فيرجع إلى خلفياته المعرفية التي تختلف عن خلفية الكاتب وذوقه الأدبي، ومنظومته القيمية. أما معنييا الوسم والأثر،

فهما يعالقان العنوان بنصه، وهذا لا ينفي عنه استقلاله عن نصه الأصل، فهو سمة للكتاب/الرواية، يسم موضوعه في أوله، وأثر في جسده دال على معناه مكثفا.

1 -2 - العنوان كواقعة تركيبية : العنوان مجموعة من الوحدات اللسانية الداخلة في علاقة تفاعلية فيما بينها، تقبل التحليل كلمة كانت أم جملة، من حيث هي ملفوظ إنجازي(10). فقد جاءت العناوين المشتغل على الصعيد التركيبي جملا اسمية (11)، مركبة تركيبا اسميا مبتدأ وخبر وهذا في عنوان (الجسد/ مبتدأ، ولية /خبر) لفرج لحوار، أما باقي العناوين فقد فجاءت مركبة تركيبا إضافيا، وهذا المركب الإضافي يقيم علاقة بين عنصرين اسميين، الأول رأس المركب، والمضاف، نجده في العناوين (كتاب/ مضاف، الأمير/مضاف إليه)، و(نزيف/مضاف، والحجر/مضاف إليه)، و(لعبة/مضاف، النسيان/مضاف إليه) فنجد بأن علاقة المضايفة تجعل من المتضايفين كالشئ الواحد.

1 -3 - العنوان كواقعة دلالية :

نجد أن عناوين الروايات المغاربية المدروسة تعتمد على مبدأ التقابل بين كلماتها البانية للعناوين. فكلمة (لعبة/النسيان، والجسد/الوليمة، ونزيف/الحجر، كتاب/الأمير)، مما راكم بؤرة استعارية تفاعلية بين هذه الكلمات، بقريبها للنكرة من المعرفة، والمؤنث من المذكر، والمحسوس من المجرد، والعكس، وهذا ما عمل على تشكيل استعارة مكنية قائمة على الانزياح الدلالي والجمالي لهذه العناوين في بحثها عن المشبه به المحسوس قصد مناصرته للمشبه به، وهذا ما فتح أفق انتظارات القارئ وهو يستقبل هذه الاستعارات المبنينة لفهمه المناصي والنصي في آن.

2 -العملية التواصلية السيميائية للعنوان :

يعد العنوان رسالة تواصلية وتداولية تقوم حسب مخطط التواصلي العام لياكبسون(12)، بين المرسل(المعنون -الكاتب)، المرسل إليه(المعنون له -القارئ)، والرسالة والمتمثلة في العنوان، وسنعمل على التدليل على هذه العملية بالترسيمة التالية:

المعنون/المرسل	العنوان/الرسالة	المعنون له/المرسل اليه
◆ واسيني الأعرج	كتاب الأمير }	{ الكاتب نفسه
◆ محمد برادة	لعبة النسيان }	{ أوالناشر
◆ إبراهيم الكوني	نزيف الحجر }	{ أوالقارئ :
◆ فرج لحوار	الجسد وليمة }	

أ - قارئ عادي

ب - قارئ مختص(ناقد)

ج - الجمهور المستهدف(المشتري)

- صاحب المكتبة
- محيط المؤلف(أقارب، أصدقاء)

3 - وظائف العنوان :

تعرف وظائف العنوان تعقيدا على مستوى التحديد والاشتغال، فالكثير من الدارسين راموا تحديدها والقبض عليها إلا أنها ما تزال في تدبر جديد، فمنهم من أخذ الوظائف اللغوية لياكبسون(13)، وأعملها في مقاربة العنوان، ومنهم من اجترح وظائفه جديدة حاول تقريبها من حقل الاشتغال العواني، وهذا ما قام به كل من "دوشي، ميتيرون، وهوبك" بتركيزهم بالأساس على الوظيفة التداولية(أي الإغرائية، والتحريضية، عند دوشي وميتيرون)، (14) ليعبد نمذجتها "ج. جينيت" بتجديدها في ثلاث وظائف أساسية، وهي الوظيفة التعيينية، والوظيفة الوصفية، والوظيفة الإغرائية(15)، مجيبا بذلك على سؤاله المناصي، ماذا نفعل بوظائف العنوان؟

3 -1 - الوظيفة التعينية/التعنينية : ووظيفة التعيين أو التعنين، هي الوظيفة التي تقوم بتسمية النص وتحديد هويته وانتمائه داخل المؤسسة الأدبية، فعناوين المشتغل عليها، الجسد وليمة، لعبة النسيان، كتاب الأمير، نزيف الحجر، تعلن عن اسمها في أولها، كما تعلن عن وجودها الأنطولوجي في أول صفحة الغلاف، فالعناوين تعن نفسها لقرائها المستهدفين بالتعريف عن هويتها الاسمية كأن تضمر القول **(أنا هذا العنوان/الكتاب فقرؤني...)**، أو قولها**(أنا اسمي..لعبة النسيان، لعبةالنسيان، نزيف الحجر، كتاب الأمير..فقرأني)**، وهذه الإستراتيجية الاستهدافية من تسمية الكتاب/الرواية ستنشط الفضول القرائي عند الجمهور المستهدف أيضا، فنجد القارئ عند شرائه لكتاب ما لا يسأل عن الكاتب ولكن يسأل المكتبي **"هل عند كتاب الأمير، أوهل أجد في مكتبتك الجسد وليمة "** إلى غير ذلك من الأسئلة التداولية التي تحملها هذه الوظيفة، التي تعد فعلا موجها لقراءة الرواية.

3 -2 - الوظيفة الوصفية : تعد الوظيفة الوصفية من أهم وظائف العنوان لأنها المسؤولة على الإخبار عن العنوان وتحديد موضوعه والربط بن العنوان ونصه، فهي بتعبير "جوزيب بيزا" المسؤولة عن الانتقادات الموجهة للعنوان من طرف القراء والمبدعين، ومعاتبتهم لكاتب، إذا أخفق هذ العنوان من قول شئ عن نصه(16) فمثلا عنوان لعبة النسيان يخبرنا بتعليقه عن نصه بقوله **" وكل ما ذكرته الآن يبرز السلبيات، في حين أن التمييز الذي يستحق هذا الاسم يجب أن يتوقف عندما هو إيجابي، إنس السلبي وتذكر الإيجابي، لأنك في حالة العكس تبطل لعبة النسيان"** ص 122 .أوما يخبرنا العنوان مكثفا عن نصه:**"أخرج كتابا من تحت لباسه الفضفاض الذي يشبه لباس الرهبان وفتحه على الصفحة الأولى وبدأ يقرأ بالتدرج**.رأى العنوان الذي يرتسم بخطوط عريضة وواضحة جدا: **عبد القادر في قصر أمبواز"** ص 18 .وهذا ما نجده كذلك في الجسد وليمة حيث يخبرنا أنه :**" يولم الجسد، فلا حياة خارج الوليمة.لا تكون دائما توهجا وتألقا وانشراحا.فهذه المعاني من التجريد لا نصيب لها في الهندسة، والجسد مأوى الطين والوحل..."** ص 13 .كما يخبرنا عنوان نزيف الحجر

عن نصه وتلك الإيقونة الحجرية وإنسان ما قبل التاريخ : **" الصخرة العظيمة تحد سلسلة الكهوف، وتقف في النهاية كحجر الزاوية، لتواجه الشمس القاسية عبر آلاف السنين، وقد زينت بأبدع رسوم إنسان ما قبل التاريخ في الصحراء الكبرى كلها على طول الصخرة الهائلة ينهض الكاهن العملاق بذلك القناع الغامض، ويلامس بيده اليمنى الودان..."** [ص8]. فنجد بأن الوظيفة الوصفية، هي وظيفة، شارحة لمضمون نصها بكلمات موجزة في أولها، لأن العنوان يجمل والنص/الرواية يفصل.

3 -3 - الوظيفة الإغرائية : تعد الوظيفة الإغرائية أوالتداولية من أوكد الوظائف بالنسبة للعنوان ومن أعقدها كذلك وهذا للصعوبة القبض عليها، من كونها تعمل على حمل القارئ على الاقتناع بشراء المنتوج (العنوان/الرواية)، بتحفيزها لمسالك الإغواء لديه، وتنشيطها لمكامن الإراء عنده، فهي ذات طاقة تأثيرية كبيرة على القارئ، فاستخدام الكتاب لعناوين جاذبة ستوقض الفضول الشرائي لذا القارئ فعنوان مثل الجسد وليمة سيدفع بالقارئ للتساؤل لماذا الجسد وليمة؟ فلا بد من قراءة هذه الروية، أو هل كتاب الأمير هو لماكيافيلي، هو هو رواية عن شخصية الأمير عبد القادر الجزائري؟، أو ما العلاقة الموجودة بين العنوان نزيف الحجر والصورة المرفقة بالغلاف المرسوم عليها إنسان ما قبل التاريخ؟ هل العنوان يتكلم عنه؟ فنجد العنوان هو من بين محددات ميثاق القراءة الذي يعمل على تحفيز القارئ لفرضيات وشبكات لقراءتها منطلقا من العنوان، وكذلك يحفز فضوله لشراء هذا العنوان قصد تحقيق السيناريوهات التي بناها عنه، فالعنوان هو دائما أحسن سمسارا للكتاب(17).

غلق منهجي :

بعد طول هذا التدبر المعرفي في مفاصل سيميائيات العنوان التي تعد مبحثا مايزال سالكا في الدراسات السيميائيات ، والذي يحتاج إلى إغناء في جهازه النظري، وتطوير في آلياتها لتحليلية، لهذا عملنا جاهدين في هذا البحث على تفهيمه لذا كبار المشتغلين عليه في السيميائيات والسرديات والعنوانيات تحديدا، بإبراز حدوده، والكشف عن وظائفه، وتتبع مسارات اشتغاله في الرواية.

الهوامش :

◆ **المصادر :**

- إبراهيم الكوني، رواية نزيف الحجر، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الجماهيرية العظمى، ودار الآفاق الجديدة، المملكة المغربية، ط 2، سنة 1991.

-محمد برادة، رواية لعبة النسيان، دار الأمان، ط 3، سنة 1995، المغرب.

- فرج لحوار، رواية الجسد وليمة، دار تبر الزمان، سنة 1999، تونس.

- واسيني الأعرج، رواية كتاب الأمير(مسالك أبواب الحديد)، دار الفضاء الحر، ط1، سنة 2004، الجزائر.

◆ **المراجع :**

1 - جمال بوطيب، العنوان في الرواية المغربية(حداثة النص/حداثة محيطه)، في كتاب الرواية المغربية أسئلة الحداثة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، سنة 1996، الدار البيضاء، المغرب، ص 193

2 - ابن أبي الأصبع المصري، تحرير التحبير(في صناعة الشعر والنثر، وبيان إعجاز القرآن)، تقديم وتحقيق، حنفي محمد شرف، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، سنة 1963 القاهرة، ص553.

3 - جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، وبهامشه إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني، عالم الكتاب، ج2، بيروت، ص 107.

4 - ذكر "ج.جينيت" في كتابه عتبات جملة ممن إشتغلوا على العنوانيات، في الهامش رقم 01، ص 57.

5- Leo Hoek, La marque du titre, dispositifes sémiotique d'une pratique Textelle,ed. La Haye-Mouton, Paris,1981.

6 - المرجع نفسه، ص 17.

7- G.Gentte, Seuils,ed. du Seuil, Paris,1987,p57-98.

8- Christien Achour Simon Rezzoug, Convergences critiques (introducTion à la lecture du littéraireà, OPU, Alger, janvier, 1990, p.28.

9 - إبن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث، ومؤسسة التاريخ العربي، ط3، ج9، دت، بيروت لبنان، ص 437 -447.

10 - Leo Hoek, Déscription d'un archonte, Préliminaire a une théorie du titre a partir du nouveaux roman, in nouvaux roman,hier,aujourd'hui 1,Problèmes généraux,ed.U.G.E.10-18, Paris,1972,p.291.

11 - محمد فكري الجزار، العنوان وسيميوطيقا الإتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1998، مصر، ص 39.

12 - R.Jakobson, Essais de linguistique générale, ed.de Minuit, Paris, 1963,p.214.

13 - المرجع نفسه.

14- Henri Metterand, Les titres des romans de Guy des Cars, in Claude Duchet, sociocritique,ed.Nathan, Paris,1979, p90-92.

15- G.Gentte, Seuils, ed. du Seuil, Paris,1987, pp.80-97.

16 - Jeseb Beasa Camprubi, les fonctions du titre, pp.12-20.

17- G.Gentte, Seuils, ed. du Seuil, Paris,1987, pp.96-97.